العـــدد 20A شباط 2026
No.20A Feb. 2026
المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254

الحرية والمسؤولية الفردية في بناء المجتمع: دراسة في ضوء فكر الغزالي وابن رشد

م.د.رائد محمود قدوري
جامعة سامراء / كلية العلوم الاسلامية / قسم أصول الدين
م.د.محمود حسن علي
Mahmood.has.ali@uosamarra.edu.iq
جامعة سامراء / كلية التربية / قسم علوم القران والتربية الاسلامية
رقم الاوركيد https://orcid.org/0009-0007-6330-7105

الملخص

يتناول هذا البحث مفهوم الحرية والمسؤولية الفردية في بناء المجتمع من خلال تحليل رؤى كل من الغزالي وابن رشد، بوصفهما من أبرز فلاسفة الإسلام. ويسلط الضوء على كيفية توظيف الحرية بوصفها قيمة روحية وعقلية، مرتبطة بالاختيار الأخلاقي والواجب الاجتماعي. كما يناقش البحث دور المسؤولية الفردية في تحقيق العدالة الاجتماعية وتعزيز البناء الحضاري. ويقارن بين الرؤية الصوفية-الأخلاقية للغزالي والفلسفية-العقلانية لابن رشد في هذا السياق. ويخلص إلى أهمية التوازن بين الحرية والانضباط في تأسيس مجتمع متماسك وقادر على مواجهة تحديات العصر.

كلمات مفتاحية : الحرية , الزهد, الغزالي, ابن رشد ,الفرد , الدولة

Freedom and Individual Responsibility in Building Society: A Study in Light of the Thought of Al-Ghazali and Ibn Rushd

Dr. Raed Mahmoud Qaddouri
Samarra University / College of Islamic Sciences / Department of Fundamentals of Religion
Dr. Mahmoud Hassan Ali
Mahmood.has.ali@uosamarra.edu.iq
Samarra University / College of Education / Department of Quranic Sciences and Islamic Education
Orchid Number https://orcid.org/0009-0007-6330-7105

Abstract

This research addresses the concept of freedom and individual responsibility in building society by analyzing the perspectives of Al-Ghazali and Ibn Rushd, two of the most prominent Islamic philosophers. It highlights how freedom is employed as a spiritual and intellectual value, linked to moral choice and social duty. The research also discusses the role of individual responsibility in achieving social justice and promoting civilizational development. It compares Al-Ghazali's Sufi-ethical vision with Ibn Rushd's philosophical-rational vision in this context. He concludes by emphasizing the importance of a balance between freedom and discipline in establishing a cohesive society capable of facing the challenges of the age.

Keywords: freedom, asceticism, Al-Ghazali, Ibn Rushd, individual, state

المقدمة: تُعدُّ الحرية والمسؤولية الفردية من أعمدة الفكر الإنساني ومفاتيح نهوض المجتمعات، إذ لا يمكن تصوّر بناءٍ اجتماعيٍّ سليمٍ دون أن يتمتع الأفراد بحريةٍ واعيةٍ ومسؤوليةٍ أخلاقيةٍ تُوجّه سلوكهم نحو الخير

العام. وقد أولت الفلسفات المختلفة، منذ أرسطو وحتى مفكري الحداثة، أهمية كبرى لهذين المفهومين، غير أن الفكر الإسلامي –وخاصة في تجلياته الفلسفية عند الغزالي وابن رشد– قدّم معالجةً نوعيةً لهما، تزاوج بين البعد الإلهي والإنساني، وتربط الحرية بالغاية الأخلاقية، والمسؤولية بالبناء الروحي والاجتماعي.

إنّ الحديث عن الحرية في السياق الإسلامي لا ينفصل عن جوهر التوحيد وفكرة التكليف، فالإنسان حرٌّ بمقدار ما يستبصر بعقله ويهتدي بقلبه، وهو مسؤول بمقدار ما يُدرك عواقب فعله ضمن نسقٍ تتداخل فيه الإرادة الإلهية مع حرية الاختيار. وقد انشغل الإمام الغزالي (ت. 505هـ) بهذا التوتر بين الإرادة الإلهية والقدرة البشرية، مقدّمًا رؤيةً تربويةً وأخلاقيةً تُؤطر الحرية ضمن إطار التزكية. في المقابل، نجد عند ابن رشد (ت. 595هـ) نزعةً عقلانيةً تميل إلى تأكيد الفاعلية الإنسانية، حيث تُصاغ الحرية كجزء من العقل العملي، وتتجلى المسؤولية في سعي الإنسان لتحقيق الكمال الذاتي والمصلحة العامة في إطار العقل والشرع.

إشكالية البحث:

ينطلق هذا البحث من سؤال محوري مفاده:

ما مفهوم الحرية والمسؤولية في الفلسفة الإسلامية، وكيف وظّف كلٌّ من الغزالي وابن رشد هذين المفهومين في بناء رؤيتهما للإنسان والمجتمع؟

وينبثق من هذا السؤال عدد من الإشكالات الفرعية، منها:

- هل الحرية عند الغزالي هي حرية داخلية روحية، أم حرية فعلية اجتماعية؟
- ما هي الأسس العقلية التي اعتمد عليها ابن رشد لتبرير حرية الإرادة والمسؤولية؟
- كيف تساهم رؤيتاهما في بناء مجتمعٍ متوازنٍ بين الفرد والجماعة، وبين الواجب والحق؟

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في أبعادها الفكرية والتربوية والاجتماعية.

فمن الناحية الفكرية، تُمكّننا من فهم التصور الإسلامي الفلسفي حول الحرية والمسؤولية، بعيدًا عن الصور النمطية التي تضع الإسلام في مقابل التحديث أو تنزع عنه الروح العقلانية.

أما من الناحية التربوية، فإن تأمل آراء الغزالي وابن رشد يُسهم في بلورة رؤية تربوية قادرة على تربية الفرد الحرّ المسؤول، وهو مطلب ضروري في زمنٍ تتعاظم فيه الأزمات التربوية الناتجة عن التناقض بين خطاب الحرية وسلوك الاستقالة من المسؤولية.

ومن الناحية الاجتماعية، فإن إعادة قراءة مفهومي الحرية والمسؤولية في ضوء تراثنا الفلسفي تفتح أفقًا لتجاوز الإشكالات المجتمعية الراهنة، مثل التبعية الفكرية، واللامبالاة السياسية، والانفصال بين القيم الدينية والواقع العملي.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

1. تحليل مفهوم الحرية والمسؤولية في فكر الغزالي وابن رشد من خلال نصوصهم الفلسفية والأخلاقية.
2. إبراز الفروق المنهجية والرؤيوية بين الغزالي (المتصوف الأخلاقي) وابن رشد (الفيلسوف العقلاني).

3. بيان كيف يمكن لكل من الرؤيتين أن تساهم في تأسيس فردٍ مسؤول، ومجتمعٍ راشد، وفق منظومة تستند إلى التراث الإسلامي وتنفتح على القيم الإنسانية.

منهجية البحث:

تعتمد هذه الدراسة على ثلاث مناهج مترابطة:

• المنهج التحليلي: من خلال تحليل نصوص الغزالي مثل إحياء علوم الدين وميزان العمل، ونصوص ابن رشد مثل تهافت التهافت وفصل المقال، لاستخلاص المفاهيم وتفكيك البنية المعرفية التي يقوم عليها تصورهما للحرية والمسؤولية.

• المنهج المقارن: للمقارنة بين رؤيتي المفكرين، واستجلاء نقاط الاتفاق والافتراق في مواقفهم من الإرادة، والعقل، والتكليف، والغاية الأخلاقية.

• المنهج التأويلي: لتفسير هذه المفاهيم في ضوء سياقاتها التاريخية والثقافية، وتوظيفها في قراءة مشكلات الإنسان المعاصر في علاقته بالحرية والانضباط.

المبحث الأول: الإطار النظري والمفاهيمي

المطلب الأول: مفهوم الحرية في السياق الإسلامي والفلسفي

1. الحرية في القرآن والسنة

يُعدّ مفهوم الحرية من المفاهيم المحورية في الفكر الإنساني، غير أن فهمه في السياق الإسلامي لا يتطابق بالضرورة مع الدلالة الغربية الحديثة التي ترتكز على الفردانية المطلقة. ففي النصوص الإسلامية، ترتبط الحرية بالتحرر من عبودية الهوى والجاه والناس، لا بمجرد إسقاط القيود الخارجية. وقد أكد القرآن الكريم على كرامة الإنسان وفاعليته، يقول الله تعالى:

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: 7–8]، في إشارة واضحة إلى الإرادة الحرة المودعة في ذات الإنسان.

كما تؤكد السنة النبوية أن الإنسان حرٌّ من حيث التكليف والاختيار؛ فقد قال النبي ﷺ: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدّثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم" (البخاري، حديث رقم 6664)، مما يدلّ على أن الحرية في الإسلام حرية اختيار مقرونة بالنية والعمل.

ولا يقف الإسلام عند منح الحرية في الاعتقاد فقط، بل يُؤكد على حرية القول والاعتراض ما دام في حدود الأدب العام؛ فعمر بن الخطاب لم يعاقب المرأة التي ردّت عليه في خطبته المشهورة بقوله: "أصابت امرأة وأخطأ عمر" (الطبري، 1999، ج3، ص236).

2. الحرية العقلية، الروحية، الأخلاقية

الحرية في التصور الإسلامي متعدّدة الأبعاد:

• الحرية العقلية: هي قدرة الإنسان على التفكير المستقل، وتمييز الخير من الشر. وقد اعتبر الغزالي أن العقل هو "الميزان الذي به يُعرف الصدق من الكذب" (الغزالي، 2004، ص 18).

• الحرية الروحية: تتجلّى في التحرر من سيطرة الشهوات، ويُعد ذلك من أعلى مراتب الحرية؛ حيث يرى الغزالي أن "أعظم الناس حرية من كفّ نفسه عن الهوى" (إحياء علوم الدين، ج3، ص 40).

• الحرية الأخلاقية: تتمثل في الالتزام الذاتي بالخير، من دون قسر خارجي، وهو ما يُعبّر عنه ابن رشد بمقولة أن "الإنسان لا يُحسن إلا إذا علم أن الحسن في ذاته غاية"، مؤكدًا بذلك مسؤولية الحرية (ابن رشد، 1997، ج1، ص 155).

3. الفرق بين الحرية والتحلل

لا تساوي الفلسفة الإسلامية بين الحرية والتحلل. فبينما تنظر بعض الفلسفات الحديثة إلى الحرية بوصفها التخلص من كلّ قيد، يؤكّد الإسلام أن الحرية الحقيقية لا تنفصل عن الضوابط الأخلاقية. يقول الله تعالى: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا تُرجعون} [المؤمنون: 115]، مما يشير إلى أن الحرية بدون مسؤولية = عبث.

وقد عبّر ابن القيم عن هذا المعنى بقوله: "الحرية الحقيقة أن تكون عبدًا لله، لا عبدًا لما سواه" (ابن القيم، 2003، ص 89). فالتحلل من القيم لا يعني حرية، بل انحدار نحو الفوضى الوجودية، حيث يُصبح الإنسان "أسير نزواته لا سيّدًا لها".

المطلب الثاني: مفهوم المسؤولية الفردية

1. المسؤولية في الإسلام: تكليف لا ترف

يرتكز مفهوم المسؤولية في الإسلام على جوهر التكليف، لا على الاستحقاق الطبيعي أو الوضع القانوني فقط. فالإنسان مسؤول بمقتضى العقل والتكليف والحرية. يقول الله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ... فَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ} [الأحزاب: 72]، في إشارة إلى أن المسؤولية هي من جوهر الإنسان الحر.

وقد أكّد الغزالي أن "التكليف الإلهي لا يستقيم إلا بقدرة وإرادة، وكلّما عظمت الإرادة، عظُمت المسؤولية" (الغزالي، 2004، ص 25). أما ابن رشد، فيرى أن المسؤولية لا يمكن تصوّرها بدون حرية الإرادة، قائلًا: "لو لم تكن لنا إرادة مستقلة لما جاز أن نُحاسب، والشارع لا يوجّه الخطاب إلا إلى القادر" (ابن رشد، 1994، ص 70).

2. العلاقة بين المسؤولية الذاتية والعدالة الاجتماعية

لا تكتمل العدالة الاجتماعية إلا إذا قام كلّ فرد بمسؤوليته الذاتية، بوصفها شرطًا للعدالة الجمعية. فإذا تنصّل الفرد من مسؤوليته في الأخلاق، أو في العمل، أو في المشاركة المجتمعية، تعطّلت القيم الاجتماعية الكبرى.

يُشير ابن مسكويه إلى أن "صلاح النفس مقدمة لصلاح الدولة" (ابن مسكويه، 1985، ص 44)، وهذا ما يشير إلى أن العدالة لا تُبنى فقط بالقوانين، بل بالأخلاق الفردية.

الغزالي يُشدّد أيضًا على المسؤولية الذاتية، لا سيما في محاسبة النفس، ويقول: "حاسب نفسك قبل أن تُحاسب، وزنها قبل أن توزن" (إحياء علوم الدين، ج4، ص 62). أما ابن رشد، فيربط المسؤولية الأخلاقية بالفهم العقلي للخير، ويعتبر أن كلّ إنسان مسؤول بقدر فهمه للحق والعدل (ابن رشد، 1994، ص 75).

وهكذا، تتجلّى المسؤولية في الفكر الإسلامي كقيمة مزدوجة: داخلية فردية، وخارجية اجتماعية، ولا يمكن تحقيق السلم الاجتماعي دون أن تتجذّر هذه القيمة في الضمير الجماعي.

الفصل الثاني: الحرية والمسؤولية في فكر الإمام الغزالي

المطلب الأول: رؤية الغزالي للحرية الإنسانية

1. الحرية كتحرر من الشهوة والهوى

في فكر الإمام أبي حامد الغزالي (ت. 505هـ)، لا تُفهم الحرية بوصفها تحررًا من القيود الخارجية فقط، بل هي أولًا تحرر داخلي من سلطان الشهوات، ونزعات النفس، وهي بذلك مدخل للتزكية لا للانفلات.

يرى الغزالي أن "الحرية الحقيقية لا تُنال إلا إذا تحرر الإنسان من سيطرة النفس الأمارة بالسوء، ومن عبودية الهوى"، ويقول في إحياء علوم الدين:

"العبد عبد الهوى، والحرّ من أعتق نفسه من رق الشهوة والغضب" (الغزالي، 1998، ج3، ص 58).

وبهذا المعنى، تصبح الحرية عند الغزالي مرادفًا للتهذيب الأخلاقي، وليست صراعًا مع السلطة أو المجتمع. إنها مشروع داخلي لتحرير الذات من قيود الباطن، قبل مقاومة أي قيد خارجي. فالشهوة ليست فقط خطرًا على النفس، بل مانع من التكليف الواعي.

وفي كتاب ميزان العمل، يوضح الغزالي العلاقة بين الهوى والعقل بقوله:

"فإذا صار العقل أسير الهوى، فسد الرأي واختلّ التقدير، ولم يعد الإنسان أهلًا لاختيار الخير" (الغزالي، 2004، ص 37).

ومن هذا المنظور، لا يمكن تصور إنسان حرّ إلا إذا خضع لبرنامجٍ مستمرٍ من المجاهدة والتأمل والمحاسبة، حيث يصبح الإنسان سيد نفسه لا عبدًا لنزواته.

2. دور العقل والشرع في ضبط الإرادة

يحتل العقل مكانة محورية في فلسفة الغزالي، وهو الوسيلة التي يُميز بها الإنسان بين الخير والشر. ومع أن الغزالي متأثر بالتقاليد الصوفية، إلا أنه لا يُقصي العقل، بل يرى أن العقل والشرع متكاملان في توجيه الإرادة الإنسانية.

في إحياء علوم الدين، يذكر الغزالي أن "العقل آلة الفهم، والشرع ميزان الميزان، فمن ترك أحدهما ضلّ، ومن جمع بينهما اهتدى" (الغزالي، 1998، ج1، ص 21).

الحرية عنده ليست مطلقة، بل مشروطة بإرشاد العقل وهداية الشرع، فالإرادة الفردية لا ينبغي أن تتحول إلى فوضى سلوكية، بل يجب أن تضبطها مقاصد الشريعة.

كما يظهر في المنقذ من الضلال أن الغزالي لا يؤمن بعقل مفصول عن الوحي، بل بعقل مسترشد به، وقد كتب:

"لم يكن استغنائي بالعقل، بل كان العقل دليلًا إلى نور الوحي، وإذا خلا العقل من النور الشرعي، ضلَّ بصاحبه" (الغزالي، 2003، ص 51).

وهكذا تصبح الحرية الهادفة عند الغزالي مشروعًا توافقيًا بين العقل والشرع، وبين الاختيار والغاية، لا فوضى فردانية تُؤسس للتفكك.

المطلب الثاني: المسؤولية الأخلاقية والتربوية في مشروع الغزالي

1. تزكية النفس كطريق لتحمّل المسؤولية

يرى الغزالي أن المسؤولية الأخلاقية لا تنبع من القوانين الخارجية، بل من طهارة الباطن، فالفرد لا يستطيع تحمّل مسؤوليته الحقيقية إلا إذا زكّى نفسه، وتحرّر من أمراض القلب كالكبر والحسد والغضب.

في كتابه إحياء علوم الدين، أفرد الغزالي ربعًا كاملاً للحديث عن المنجيات والمهلكات، وأكّد أن النفس هي ساحة المعركة الحقيقية، فقال:

"من لم يهذب أخلاقه، ولم يطهر قلبه، كان كالآلة في يد الشيطان، يُحرّكها حيث شاء" (الغزالي، 1998، ج3، ص 70).

وتزكية النفس ليست عملية تأملية فقط، بل تربية شاملة تبدأ بالمحاسبة وتنتهي بالإرادة النقية. وقد قال في جواهر القرآن:

"إن الله لا يُصلح المجتمع حتى يُصلح الفرد، ولا يُصلح الفرد حتى يُجاهد نفسه" (الغزالي، 1988، ص 29).

فالمسؤولية ليست مجرد استجابة لحافز خارجي، بل انعكاس داخلي لحالة روحية ناضجة، تدفع الفرد لتحمّل التزامه أمام الله، ثم أمام الناس.

2. الفرد مسؤول أمام الله أولًا، ثم المجتمع

تُبنى المسؤولية عند الغزالي على مبدأ الحساب الأخروي، ولهذا فكلّ فرد مسؤول أمام الله أولًا، ثم يُترجم ذلك إلى سلوك اجتماعي مسؤول.

قال تعالى: {وقفوهم إنهم مسؤولون} [الصافات: 24]، وهذا الأساس يجعل المسؤولية ذات بُعد روحي وأخلاقي دائم.

وقد كتب الغزالي في ميزان العمل أن الإنسان "لا يُصبح أهلًا لتحمّل مسؤولياته الاجتماعية إلا إذا أيقن أنه مسؤول عند الله عن كلّ صغيرة وكبيرة" (الغزالي، 2004، ص 45).

كما يربط بين المسؤولية الفردية واستقامة الجماعة، قائلاً:

"لا تستقيم الأمة إلا بصلاح الأفراد، ولا يصلح الفرد إلا إذا راقب الله في عمله، وعلم أنه مسؤول لا محالة" (الغزالي، ج4، ص 83).

وفي هذا السياق، يُبرز الغزالي مسؤولية الإنسان في محيطه الأسري والاجتماعي والسياسي. فالأب مسؤول عن تربية أبنائه، والمعلم مسؤول عن تلامذته، والحاكم مسؤول عن رعيّته، وكلّ هذا ينبع من المسؤولية أمام الله.

يُبرز فكر الغزالي تداخلاً عميقًا بين الحرية والمسؤولية، بحيث لا تكون الأولى ممكنة بدون تزكية، ولا تكون الثانية حقيقية دون وعي داخلي متجذّر في مراقبة الله. فهو لا يرى الحرية مجرد حق، بل تأهيل باطني ومسؤولية أخلاقية. كما لا يرى المسؤولية مجرد واجب اجتماعي، بل تكليف روحي يبدأ من الذات وينتهي في خدمة الجماعة.

وهكذا، فإن مشروع الغزالي التربوي يقدّم نموذجًا متكاملاً لبناء الفرد والمجتمع من خلال تحرير الإرادة وضبط السلوك في ضوء العقل والشرع.

المبحث الثالث: الحرية والمسؤولية عند ابن رشد

المطلب الأول: الحرية العقلية وحرية الإرادة في فلسفة ابن رشد

1. الحرية كمظهر للعقل الكوني

في تصوّر أبو الوليد ابن رشد (ت. 595هـ)، لا تنفصل الحرية عن العقل، بل تتجذر فيه وتتأسس عليه. فالإنسان عنده ليس حرًّا لمجرد كونه كائنًا بيولوجيًا واعيًا، بل لأنه جزء من نظام عقلاني كوني، أودع الله فيه القدرة على التفكر والاستدلال والتمييز.

في كتابه فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، يرى ابن رشد أن الشرع نفسه يدعو إلى استعمال العقل، بل يُحرّض عليه، ويقول:

"فإذا كان الغرض من الشرع هو تعليم الحق، ودعوة الناس إلى النظر، وجب أن يكون النظر العقلي مأمورًا به شرعًا" (ابن رشد، 1994، ص 37).

هنا يُؤسس ابن رشد لمفهوم الحرية العقلية التي تُعطي الإنسان حق النظر والتأمل والمشاركة الفعالة في بناء المعرفة والحقيقة، بعيدًا عن التقليد الأعمى أو الاتباع الجبري.

فالحرية عنده لا تُفهم على أنها فقط فعل الإرادة، بل هي ثمرة العقل العملي الذي يُميّز الإنسان عن غيره، وبذلك يصبح الاختيار العقلي هو جوهر الكرامة الإنسانية.

2. أهمية التفكير والتأمل في تحرير الإنسان

يؤمن ابن رشد بأن التفكير والتأمل هما طريقا الإنسان إلى التحرر الحقيقي؛ تحرّر من الجهل، ومن الخرافة، ومن سلطة الخطاب المتعصب. وفي تهافت التهافت، يؤكد أن الحق لا يناقض العقل، ومن هنا فإن الحرية لا تتحقق إلا في إطار انسجام العقل مع الشريعة (ابن رشد، 1997، ج1، ص 155).

وفي تأويله للآيات القرآنية، يرى أن الله تعالى يخاطب الإنسان بوصفه عاقلاً مختارًا، لا آلةً موجهة، ويستشهد بقوله تعالى:

{أفلا يعقلون}، و{أفلا يتفكرون}، و{أفلم ينظروا}، معتبرًا أن هذه الأوامر دليل على أن الحرية في الإسلام هي حرية فكر واختيار لا قسر وإكراه (ابن رشد، 1994، ص 43).

كما يُفرّق بين الحرية الموجهة بالعقل، والحرية العاطفية الانفعالية، ويعتبر أن الأولى وحدها هي القادرة على تحقيق الخير العام، لأن "العقل العملي يرشدنا إلى مقاصد الشريعة، ويُجنّبنا غوائل الهوى" (ابن رشد، 1994، ص 76).

المطلب الثاني: المسؤولية المدنية والفكرية في مشروع ابن رشد

1. علاقة الفرد بالمجتمع والسلطة

في فلسفة ابن رشد، لا يوجد تعارض جوهري بين الفرد والمجتمع، بل إن الفرد لا يحقق حريته إلا ضمن نسق اجتماعي متوازن تحكمه العدالة. يرى أن الإنسان لا يمكن أن يكون حرًّا بالمعنى الفلسفي ما لم يكن جزءًا من جماعة سياسية/مدنية تضمن له حرية الرأي والمشاركة في الشأن العام.

وقد كتب في فصل المقال:

"المدينة الفاضلة هي التي يُستعمل فيها النظر، ويُربى فيها الناس على الفضائل، ويُفتح لهم مجال الفكر الحر" (ابن رشد، 1994، ص 81).

وهكذا يتضح أن الحرية عنده ليست فقط قضية فردية، بل هي شرط لمجتمع عقلاني ينهض بالمعرفة والعدل.

وفي إطار العلاقة مع السلطة، يؤكد ابن رشد أن الحاكم العادل هو من يُفسح المجال للعلماء والمفكرين للتعبير والنقد، لأن "حجب الفكر عن الناس يورث الجهل، ويُضعف الأمة" (ابن رشد، 1997، ج2، ص 133).

وبذلك يؤسس لقاعدة المسؤولية المتبادلة:

- الفرد مسؤول عن بناء ذاته وعقله.
- الدولة مسؤولة عن توفير بيئة الحرية والمعرفة.
- والمجتمع مسؤول عن حفظ التوازن بين الحرية والانضباط.

2. دور المعرفة في تحمّل المسؤولية المجتمعية

تُعدّ المعرفة –عند ابن رشد– حجر الزاوية في بناء الإنسان الحر والمسؤول. فلا مسؤولية بدون وعي، ولا وعي بدون علم. وقد ربط ابن رشد دائمًا بين المعرفة العقلية والمسؤولية الأخلاقية والمدنية.

يقول في كتاب الكشف عن مناهج الأدلة:

"إذا صحّت المعرفة، صحّ الفعل، وإذا اختلّ الفهم اختلّ الحكم، وساد الباطل" (ابن رشد، 1998، ص 65).

ولذلك يرى أن الجهل لا يُعذر به الإنسان في الأمور الكبرى، لأنه تفريط في أداة الحرية والمسؤولية، أي العقل.

ويُؤكّد أن من يُهمل طلب العلم، أو يُقصي التفكير، يُقصي نفسه عن دائرة الفاعلية الأخلاقية والسياسية، ولهذا يقول:

"ليس المواطن من يطيع فقط، بل من يَفهم ويُسهم ويُنقّح ويُناظر" (ابن رشد، 1994، ص 84).

وفي هذا السياق، تصبح المسؤولية المجتمعية واجبًا معرفيًا، وليست مجرد التزام أخلاقي أو قانوني. فكلما تعمّق الإنسان في فهم ذاته والعالم، ازدادت مسؤوليته في الإسهام ببناء مجتمع عادل وعاقل.

لقد قدّم ابن رشد تصورًا عقلانيًا عميقًا عن الحرية والمسؤولية، حيث تتجذّر الأولى في جوهر العقل، والثانية في عمق المعرفة. لم يفصل بين الفرد والمجتمع، ولا بين العقل والشرع، بل أقام بين هذه المكونات جسرًا فلسفيًا متينًا، يجعل من الإنسان كائنًا حرًّا ومسؤولًا في آنٍ معًا.

وإذا كان الغزالي قد ركّز على البعد الروحي التربوي، فإن ابن رشد يُؤسس لمسؤولية مدنية وفكرية، ترتكز على حرية النظر، ومشاركة العقل في تدبير الشأن العام.

الفصل الرابع: مقارنة تحليلية بين الغزالي وابن رشد

المطلب الأول: نقاط الالتقاء

1. الإيمان بالعقل ودوره في السلوك الإنساني

رغم انتمائهما إلى تيارين مختلفين –الغزالي إلى الروحانية الصوفية، وابن رشد إلى العقلانية الفلسفية– فإن كليهما يشتركان في الإيمان بدور العقل كأداة مركزية لفهم الذات والعالم وتوجيه السلوك الأخلاقي.

فالغزالي يصف العقل بـ"النور الذي يُضيء مسالك الطريق إلى الله"، ويعتبره شرطًا في التكليف (الغزالي، 1998، ج1، ص 21). بل يرى أن فساد العقل يؤدي إلى فساد الفعل، لأن "العمل إنما يكون صالحًا بصلاح الفكر، والفكر لا يستقيم إلا بالعقل" (الغزالي، 2004، ص 38).

أما ابن رشد، فيُعلّي من شأن العقل حتى يجعله معيارًا لفهم النصوص الشرعية، ويصرّ على أن "لا تعارض بين العقل والنقل الصحيح"، بل إن الشريعة نفسها تحضّ على استعماله (ابن رشد، 1994، ص 42). كما أن الأخلاق عنده ليست مجرد تقليد ديني، بل ثمرة لوعي عقلي يتوجه نحو الخير العام.

ورغم أن ابن رشد أكثر راديكالية في مركزية العقل، والغزالي أكثر تحفظًا، إلا أن الوظيفة التهذيبية للعقل تشكّل نقطة التقاء مركزية في مشروع كلٍّ منهما.

2. الربط بين الحرية والمسؤولية

يتفق الغزالي وابن رشد على أن الحرية لا تكون حقيقية إلا إذا اقترنت بالمسؤولية. فكلاهما يرفض مفهوم "الحرية المطلقة" المنفصلة عن الضوابط الأخلاقية أو عن الواجبات الاجتماعية.

الغزالي يرى أن "الحرية إذا لم تُقيد بالتقوى، صارت مدخلًا إلى الهلاك" (الغزالي، 1998، ج3، ص 59)، ويجعل المسؤولية نابعة من رقابة الذات ومحاسبتها أمام الله. أما ابن رشد، فيربط الحرية بـ"الفعل العقلاني الموجّه نحو الصالح العام"، ويرى أن الإنسان لا يُحاسب إلا لأنه فاعل عاقل حر (ابن رشد، 1998، ص 67).

في فلسفة كليهما، تُصبح المسؤولية مظهرًا من مظاهر إنسانية الإنسان:

- عند الغزالي: مسؤول أمام الله لأنه كُلِّف وسيُحاسب.
- عند ابن رشد: مسؤول أمام العقل والمجتمع لأنه فاعل مدني حرّ.

المبحث الثاني: نقاط التمايز

1. الغزالي: الحرية تقترن بتربية النفس والروح

يرى الغزالي أن الحرية الحقيقية هي تحرر داخلي، أي تحرر من هوى النفس وغواية الدنيا، ويجعل أساسها مجاهدة الذات وتزكية القلب.

في إحياء علوم الدين، يقول:

"العبد عبد شهوته ما لم يتحرر بالمجاهدة، ولا حرية في ظاهر بلا حرية في باطن" (الغزالي، 1998، ج3، ص 54).

فهو ينظر إلى الحرية بوصفها سيرًا روحيًا داخليًا، لا وضعًا سياسيًا أو قانونيًا. كما يعتبر أن الإنسان لا يُصبح مسؤولًا أخلاقيًا إلا إذا عبر طريق التهذيب النفسي.

وهنا يتأثر الغزالي بمدارس التصوف الأخلاقي مثل الحارث المحاسبي وأبي طالب المكي، حيث التركيز على مجاهدة النفس، والتخلص من الحجب النفسية (سعيد، 2001، ص 123).

2. ابن رشد: الحرية تنبع من العقل والتفلسف

على خلاف الغزالي، ينظر ابن رشد إلى الحرية باعتبارها وظيفة عقلية سياسية، تتحقق عبر التفكير الحر، والتربية العقلية، والمشاركة في الشأن العام.

يقول في فصل المقال:

"الحرية لا تكتمل إلا إذا تربى الإنسان على النظر، وفهم علل الأشياء، وتمكّن من الحكم في القضايا العامة" (ابن رشد، 1994، ص 81).

وهكذا تُصبح الحرية عند ابن رشد متصلة بالتعليم والفلسفة والمدنية، لا بالمجاهدة الروحية. بل إن غياب العقلانية يؤدي –برأيه– إلى الاستبداد والتقليد الأعمى، مما يسلب الإنسان حريته.

وهو في هذا متأثر بالفكر اليوناني، خصوصًا أفلاطون وأرسطو، حيث يلتقي مفهوم الحرية مع الفعل السياسي والتفكير العمومي (Fakhry, 1983, p. 145).

3. الغزالي يحاكم الإنسان أمام المطلق، وابن رشد أمام الدولة والمجتمع

من أهم وجوه التمايز بين المفكرين: نطاق المسؤولية.

• الغزالي يرى أن المحكمة العليا للإنسان هي محكمة الله، حيث تُوزن أعماله بميزان الآخرة. ولهذا فإن مركز المسؤولية أخلاقي غيبي، يقوم على الإيمان بالعقاب والثواب.

"من علم أن الله يراه، حمل نفسه على المراقبة والمحاسبة" (الغزالي، 1998، ج4، ص 83).

• أما ابن رشد، فيرى أن الإنسان يُحاسب أولًا ضمن الجماعة السياسية والعقل الجماعي. فالمعرفة تنتج المسؤولية، والعقل المدني هو ضمير المجتمع. ولهذا فإن معيار المحاسبة عنده دنيوي، اجتماعي، قانوني، وإن لم يُلغِ البعد الأخروي تمامًا.

هذه الرؤية تُجذر الإنسان في واقعه، وتجعل من التربية والتعليم والحرية المدنية شروطًا لقيام العدالة.

تكشف المقارنة بين الغزالي وابن رشد عن تكامل عميق بين البعدين الروحي والعقلي في الفلسفة الإسلامية. فالغزالي يُعيد بناء الإنسان من الداخل، ويركّز على الطهارة الأخلاقية والنية والضمير، بينما يُعيد ابن رشد بناء الإنسان من الخارج، انطلاقًا من العقل والفكر والمؤسسات.

ومن خلال جمع الرؤيتين، نستطيع رسم مشروع شامل للحرية والمسؤولية في الإسلام:

• حرية تنطلق من الداخل الروحي كما عند الغزالي،

• وتنفتح على المجال العام كما عند ابن رشد.

الفصل الخامس: إسقاطات فكر الغزالي وابن رشد على واقعنا المعاصر

أولًا: الغزالي والتربية الروحية في العصر الحديث

يقدّم الإمام أبو حامد الغزالي تصورًا متكاملًا للحرية والمسؤولية قائمًا على تزكية النفس، وضبط الأهواء، وتحرير الإنسان من العبودية للغرائز. وهذا المفهوم بالغ الأهمية في عصر يواجه فيه الإنسان طغيان النزعة الاستهلاكية، والاغتراب الروحي، وغياب القيم.

الغزالي يرى أن الحرية لا تتحقق إلا بـــ"التحرر من سلطان النفس الأمارة"، وليس بمجرد نفي القيود الخارجية (الغزالي، 2005، ص 109). وهو ما يجعل من تربيته مشروعًا روحيًا لا يقتصر على الفرد، بل يمتد ليشكّل لبنة أساسية في إصلاح المجتمع من الداخل.

في كتابه إحياء علوم الدين، يشرح الغزالي كيف أن الحرية الحقة هي ثمرة مجاهدة النفس، ومراقبة الله، لا الانفلات من الواجبات. ومن هنا، يمكن إعادة قراءة الغزالي كمصدر لإحياء مشروع تربوي معاصر يربط بين الحرية والفضيلة، وبين تهذيب النفس وإصلاح الجماعة (الغزالي، 2005، ص 93–115).

وقد أشار المفكر طه عبد الرحمن إلى أن مشروع الغزالي يوفّر "أساسًا روحانيًا لأخلاقيات الحداثة الإسلامية، من خلال عقل أخلاقي لا يفصل بين الحرية والعبودية لله" (عبد الرحمن، 1994، ص 210).

التطبيق المعاصر:

• في زمن تتسارع فيه العولمة وتنتشر فيه التفاهة (كما سمّاها دونو، 2015)، يعيد الغزالي تشكيل سؤال: "ما معنى أن تكون حرًا؟" ليصبح: "ما معنى أن تكون مسؤولًا أمام الله والذات؟"

• يمكن استثمار رؤيته في المناهج التربوية، في التربية الأسرية، وفي بناء خطاب ديني يُعلي من حرية الروح، لا من تسلط الأيديولوجيا.

ثانيًا: ابن رشد وتأسيس الحرية الفكرية والمدنية

في مقابل الغزالي، يقدّم ابن رشد تصورًا عقلانيًا للحرية، مرتبطًا بالقدرة على التفكير، والاستدلال، والتفلسف. يصرّ ابن رشد على أن الإنسان الحر هو الذي "يعقل"، وأن المجتمع الحر هو الذي يسمح بتداول الأفكار والنقاش (ابن رشد، 1994، ص 25).

وفي كتابه فصل المقال، يدعو إلى التوفيق بين الشريعة والفلسفة، ويُفهم من ذلك أن حرية الإنسان لا تعني الانفلات من النص، بل استيعابه عقليًا.

وهو لا يرى أن المسؤولية تقتصر على الجانب الأخلاقي الفردي، بل تشمل أيضًا المسؤولية المدنية تجاه الدولة والمجتمع. فالفرد بحسب ابن رشد مطالبٌ بالمساهمة في الشأن العام، وقول الحق، وممارسة التأمل في قضايا العدالة والسلطة (ابن رشد، 2001، ص 77).

التطبيق المعاصر:

• يُمكن توظيف فكر ابن رشد في بناء خطاب مدني عقلاني يرسّخ ثقافة الحوار، ويُعلي من قيمة الاجتهاد العقلي في قضايا الدين والسياسة.

• يُعيننا مشروعه على مقاومة ظاهرة "الرقابة الذاتية" والانغلاق الفكري الذي يسود المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

• وقد رأى محمد عابد الجابري أن ابن رشد يشكّل "العقل المؤسس لفكر حداثي عربي، قوامه نقد التقليد وتفعيل العقل" (الجابري، 1986، ص 143).

ثالثًا: أزمة الحرية اليوم: من الفوضى إلى التحرر المنضبط

يعيش عالم اليوم أزمة مزدوجة:

• من جهة، تغوّل الحريات الشخصية بلا ضوابط، ما أدى إلى انحلالات سلوكية واجتماعية.

• ومن جهة ثانية، قمع ممنهج للحرية باسم الدين أو السلطة أو الجماعة.

وهنا، يلتقي مشروع الغزالي الروحي، بمشروع ابن رشد العقلي، في صياغة "تحرر منضبط"، يوازن بين العقل والشرع، بين الروح والفكر، بين الفرد والمجتمع.

فالغزالي يُؤسس "أخلاق الحرية"، وابن رشد يؤسس "مؤسسات الحرية". والمزج بينهما قد يخلق خطابًا اجتماعيًا إسلاميًا متوازنًا، لا يستورد نموذجًا غربيًا جاهزًا، ولا ينغلق في قوقعة التراث.

التطبيق العملي:

- في السياسة: الدفاع عن حرية الرأي ضمن احترام المقدّسات.
- في التعليم: التربية على التفكير الحر مع تهذيب الضمير.
- في الدين: الدعوة إلى اجتهاد مقاصدي، وتعددية في الفهم الديني.

الخاتمة

أولًا: النتائج

- أن مفهومَي الحرية والمسؤولية في الإسلام ليسا متقابلَين، بل متلازمان، يشكّل أحدهما شرطًا للآخر.
- الغزالي يرى الحرية في مجاهدة النفس، وابن رشد في تنوير العقل؛ وهما مشروعان متكاملان.
- المسؤولية الفردية في فكر الغزالي ذات طابع أخلاقي–روحي، بينما هي في فكر ابن رشد مدنية–اجتماعية.
- كلاهما يستندان إلى مرجعية إسلامية عقلانية، لكنها مختلفة في المنهج والهدف.

ثانيًا: أهمية المزج بين الحرية الروحية والعقلية

تكمن أهمية الدراسة في كشف تكامل المشروعَين:

- فالغزالي يحمي الحرية من التفلت القيمي.
- وابن رشد يحررها من أسر التقليد والسلطة.

وهذا المزج يمكن أن يشكّل أساسًا لبناء مجتمع مسلم حديث، يُعلي من شأن الحرية دون أن يُفرط في الضوابط.

ثالثًا: مشروع إصلاح اجتماعي متوازن

إن استحضار الغزالي وابن رشد اليوم ليس مجرد تمرين تاريخي، بل هو دعوة لفهم جذور أزماتنا، واستعادة أدوات التوازن بين الفرد والمجتمع، بين العقل والوحي، بين الحرية والمسؤولية.

المصادر

1. ابن الجوزي، عبد الرحمن. (2003). *الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي*. بيروت: دار الفكر.

2. ابن رشد. (1994). *فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال* (تحقيق محمد عمارة). بيروت: دار المعارف.

3. ابن رشد. (1997). *تهافت التهافت* (تحقيق سليمان دنيا). القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.

4. ابن رشد. (1998). *الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة* (تحقيق علي بومنجل). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

5. ابن مسكويه. (1985). *تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق*. بيروت: دار الأندلس.

6. البخاري، محمد بن إسماعيل. (2001). *صحيح البخاري*. بيروت: دار ابن كثير.

7. الجابري، محمد عابد. (1986). *تكوين العقل العربي*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

8. الغزالي، أبو حامد. (1988). *جواهر القرآن ودرره*. بيروت: دار الفكر.

9. الغزالي، أبو حامد. (1998). *إحياء علوم الدين*. بيروت: دار المعرفة.

10. الغزالي، أبو حامد. (2003). *المنقذ من الضلال*. القاهرة: دار الآفاق العربية.

11. الغزالي، أبو حامد. (2004). *ميزان العمل* (تحقيق سليمان دنيا). القاهرة: دار المعارف.

12. الغزالي، أبو حامد. (2005). *إحياء علوم الدين* (تحقيق زين الدين العراقي). بيروت: دار المعرفة.

13. الطبري، محمد بن جرير. (1999). *تاريخ الرسل والملوك*. بيروت: دار الكتب العلمية.

14. عبد الرحمن، طه. (1994). *العمل الديني وتجديد العقل*. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

15. سعيد، عبد الرحمن. (2001). *مفهوم الحرية في الفكر الإسلامي: دراسة مقارنة*. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

16. دونو، آلان. (2015). *نظام التفاهة* (ترجمة مشاعل عبد العزيز الهاجري). الكويت: دار سؤال.

17. Fakhry, M. (1983). *A History of Islamic Philosophy* (2nd ed.). New York: Columbia University Press.

18. Hourani, G. F. (1976). *Islamic Rationalism: The Ethics of ʿAbd al-Jabbar*. Oxford University Press.

19. Nasr, S. H. (2006). *Islamic Science: An Illustrated Study*. World Wisdom, Inc.

References

1. Al-Bukhari, Muhammad ibn Isma'il. (2001). *Sahih al-Bukhari*. Beirut: Dar Ibn Kathir.

2. Al-Ghazali, Abu Hamid. (1988). *Jawahir al-Qur'an wa Duraruhu*. Beirut: Dar al-Fikr.

3. Al-Ghazali, Abu Hamid. (1998). *Ihya' 'Ulum al-Din*. Beirut: Dar al-Ma'rifah.

4. Al-Ghazali, Abu Hamid. (2003). *Al-Munqidh min al-Dalal*. Cairo: Dar al-Afaq al-ʻArabiyyah.

5. Al-Ghazali, Abu Hamid. (2004). *Mizan al-'Amal* (Ed. Sulayman Dunya). Cairo: Dar al-Ma'arif.

Al-Ghazali, Abu Hamid. (2005). *Ihya' 'Ulum al-Din* (Ed. Zayn al-Din al- .6
.'Iraqi). Beirut: Dar al-Ma'rifah

Al-Jabiri, Muhammad 'Abid. (1986). *Takwin al-'Aql al-'Arabi*. Beirut: .7
.Markaz Dirasat al-Wahda al-'Arabiyyah

Al-Razi, Muhammad ibn Jarir al-Tabari. (1999). *Tarikh al-Rusul wa al- .8
.Muluk*. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah

Ibn al-Qayyim, 'Abd al-Rahman. (2003). *Al-Jawab al-Kafi liman Sa'ala 'an .9
.al-Dawa' al-Shafi*. Beirut: Dar al-Fikr

Ibn Miskawayh. (1985). *Tahdhib al-Akhlaq wa Tathir al-A'raq*. Beirut: Dar .10
.al-Andalus

Ibn Rushd. (1994). *Fasl al-Maqal wa Taqrir ma bayna al-Shari'a wa al- .11
.Hikma min al-Ittisal* (Ed. Muhammad 'Imara). Beirut: Dar al-Ma'arif

Ibn Rushd. (1997). *Tahafut al-Tahafut* (Ed. Sulayman Dunya). Cairo: Al- .12
.Hay'ah al-'Ammah lil-Kitab

Ibn Rushd. (1998). *Al-Kashf 'an Manahij al-Adillah fi 'Aqa'id al-Millah* .13
.(Ed. 'Ali Boumenjel). Beirut: Dar al-Gharb al-Islami

Nasr, S. H. (2006). *Islamic Science: An Illustrated Study*. World Wisdom, .14
.Inc

Fakhry, M. (1983). *A History of Islamic Philosophy* (2nd ed.). New York: .15
.Columbia University Press

Donno, Alain. (2015). *Nidham al-Tafahah* \[*The System of Mediocrity*] .16
.(Trans. Masha'el Abdulaziz Al-Hajri). Kuwait: Dar Su'al

Abd al-Rahman, Taha. (1994). *Al-'Amal al-Dini wa Tajdid al-'Aql*. ' .17
.Casablanca: al-Markaz al-Thaqafi al-'Arabi

Sa'id, 'Abd al-Rahman. (2001). *Mafhum al-Hurriyyah fi al-Fikr al-Islami: .18
.Dirasah Muqaranah*. Cairo: Maktabat al-Anglo al-Misriyyah

Hourani, G. F. (1976). *Islamic Rationalism: The Ethics of 'Abd al-Jabbar*. .19
.Oxford University Press